جبال غير رحيمة وبيضاء
(الجزء الأول)

تقديم وترجمة: أحمد يعقوب*

«على قدم سلسلة الجبال هذه غير الرحيمة والبيضاء
أنا
محفوظ مصيص
أريج فلسطين في القارة الأمريكية
مواطن من العالم الثالث
من العين الثالثة
لهذا القمر الفارغ
أطلقُ صوتي مثل مهرة إزاء الظلمة الصلدة».
(من قصيدة محفوظ مصيص- عارٍ)

مقدمة

القارة الأمريكية، أو (العالم الجديد) كانت أسطورة في المخيلة المتقدة للشباب المغامر، وفيما «العالم العثماني البائد» كان يسوق الشباب العربي إلى جحيم «السفر برلك»، مرة باسم «الخلافة»، وثانية باسم رد اعتبار هزيمته في البلقان، مسبباً بذلك هجرة قسرية للشباب. كان الذين قالوا: «إن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» (كانوا) خلف الستار كمخرج مساعد، لكن تنفيذي، في محاولة إفراغ الأرض من سكانها الأصليين.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في العام (1888)، انطلق أكثر من ستين ألف مهاجر من حيفا وبيروت والاسكندرية مروراً بجنوة الإيطالية أو مرسيليا وصولاً، إلى بوينوس آيرس (الأرجنتين)،

وفيما بعد يعبرون على ظهور الدواب سلسلة جبال «الانديز» التي تفترش القارة الأمريكية.
وفي الفترة ما بين (1900– 1914)، وصل عدد المهاجرين العرب إلى رقم المليون إثر الأزمة الاقتصادية والعسكرية والسياسية التي نشأت عن الحرب العالمية الأولى.
تلقى المهاجرون الركلات من الواقع السافر في وضوح معالمه، كان منهم من لا يزال طفلاً بعد، فيما أغلبهم كان خافض الجناح، رؤوسهم مطأطأة، ومنقعين بالخجل والإحراج ربما حَدّ الموت.
«أمريكا العالم الجديد» لم تفهم من حيث المبدأ كم من وقائع مأساوية موجودة في حياتهم، حيث آباء وأشقاء وأصدقاء بقوا في البلاد القصيّة، وحيث لغتهم التي قوَّت أعواد لغات أخرى بدت وكأنها قادمة من وراء الكواكب، فضائحية، عصية على الاستيعاب، بل وعديمة الفائدة.
فالمسقيون في مصهر الألفيات من السنين الذين وصلوا إلى العالم الجديد قد لحقت بهم رواية ملتبسة: نادوهم «أتراك»!!.. وهم الخارجون على العهد التركي ذي الظلامية المأساوية، جوازات السفر التركية التي أتوا يحملونها كانت أنشوطة وحيدة ربطتهم بتلك الظلامية العثمانية..
ونادوهم: «مورو» و«موروكو» هي اللفظ الإسباني للمغرب العربي، حيث انطلقت جيوش المسلمين لتنشر الدين في الأندلس «وبعد أربعين جيلاً، كان أكثر من 35٪ من الجيش الإسباني الذي نشر الكولونيالية في العالم الجديد، مكوناً من جنود أندلسيين يحملون معهم ما زرعته اللغة العربية في الإسبانية»، فالمهاجر العربي صار «تركياً» أو «مورو»..!!
كان القلق والحنين لحمة أساسية لأبطال الرواية المهاجرة.. يحلمون بشكل «مَرَضيّ» بالعودة إلى العالم العربي، يتمنون أن تكون لهم حالة صلبة تمكنهم من الرجوع إلى أماكنهم الأولى كمنتصرين.
ومنهم آخرون يوغلون في إرث الانتماء الأول، يتداولون البلاد الأولى بالرائحة والفكرة، كما هو عند «إرث»(**) الأديب الشمولي «اندرس سابيلا غالبس» الذي ولد في تشيلي في 13/ ديسمبر/ 1912 لأب مقدسي وأم هندية حمراء.
وربما، كتعويض عن ساعات سود، أو كالذي يُخرج الجثث من القبور ليعيد إليها المضاع من الحق، فلقد حقق المهاجرون «انتصارات» عدة، وانتشاراً «فرعونياً» لقدراتهم في العالم الفسيح للإمكانات.
الجيل الأول من المهاجرين ولد في فلسطين، فيما الجيل الأخير منهم يتقدم الآن بصفته مُنْتَجاً منتصراً من لحم وعظم في خضم المعركة الاجتماعية الاقتصادية، ويدخل أمواج الثقافة والأدب بشخصية مركبة / هجينة / كما دخل السياسة..
لقد تمكنوا في النهاية من حفر خندق عميق في الجغرافيا الأكثر حساسية للعالم الجديد.. كشعراء وروائيين ومسرحيين وسينمائيين وفنّانين وتشكيليين وموسيقيين ومترجمين، شكلوا حضوراً أدبياً متميزاً، ربما يمنحهم صفة المشاركين المؤسسين في «المنجم» الأدبي، ليس التشيلي وحده، إنّما اللاتينو – أمريكي.
الشعراء الفلسطينيون الذين ولدوا في تشيلي قسَّمهم النقاد إلى أجيال عدة:
1– فبين (1890–1904)، ولد الكثير من الأدباء الذين سيشكلون لاحقاً جيلاً أدبياً متكاملاً سموه (جيل الـ20). ومن أبرزهم الروائي الفلسطيني (موسى موسى). إذ وسمت التقليدية والكلاسيكية جُلّ منجزهم

الإبداعي الذي تراوح بين الشعر والقصة والرواية، علماً أن معظمهم كان يمارس مهنته في الحياة، في تصنيف آخر، (كطبيب، ومهندس، ومجوهراتي، وبرجاوي.. الخ).

2- أمّا الذين ولدوا بين (1905-1919) وعرفوا بجيل الـ(42)، فإنهم شكّلوا «ثورة» في الحياة الثقافية والأدبية التشيلية، وانقلاباً كبيراً في الشعر على وجه الخصوص.

وأبرز رموز هذا الجيل الشاعر «محفوظ مصيص» و«روبرت ساره» والأديب الشمولي (اندريه سابيلا)، إذ قدم هؤلاء تقنيات جديدة مغايرة ومختلفة مع المألوف والسائد في الحياة الأدبية التشيلية واللاتينو- أمريكية، كما قدموا منطلقات صلبة لما سيعرف لاحقا بجيل الخمسينيات الذي بدا تأثره واضحاً بالثقافة العالمية (فرجينيا وولف، غراهام غرين، فرانز كافكا، وليم فوكنر، مارسيل بوست) في مجال الرواية.

3- وأخيراً يأتي الجيل الذي ولد العام (1950) ويمثله الشاعر «فريد نصار» و«ميغل لاتين» الذي كتب عنه الروائي العالمي الحائز على جائزة نوبل (غابرييل غارثيا ماركيز) عن «رحلة نصار السرّية» إلى تشيلي إبّان ديكتاتورية بينوشيه.

في هذا الملف، ثمّة أصوات شعرية تضجّ بالنمط الإسباني اللاتينو- أمريكي في الشعرية وكذلك بفلسطينيتها، إنه خطوة أولى نحو ملف أكبر يضم «المهجريون الجدد» كجزء من برنامج واسع لـ«بيت الشعر» في فلسطين، لتوثيق الأعمال الإًبداعية للشعراء الفلسطينيين في القارة الأمريكية وترجمَتها.

(**) الإرث: لـ(أندرس سابيلا): القدس كانت منذ الطفولة في حناياي، حناي ابن بعيد ... أحسست بها وأحسّها وكأنها تداعبني. بطريقة صعبةَ، كان علي ان ألفظ «خيروسالين» فيما كان والدي يبتسم لي وهو يحدثني عن حجر وحجر. عن برج وبرج، للمدينة التي في دمه، وهكذا دخلت الحياة محمياً بظلال شوارعها، حيث الظلال الصافية والمدماة ليسوع تنتشر وكأنها أعطيات الأب بعينين مضيئتين بالحنين. كان بحاجة لرؤية قدس شبابه ولا يقدر على مقاومة القلق، استطاع فقط ان يكتفي بنظرة طويلة إلى الصورة التي يعلقها في مكان مصطفى من المنزل.

القدس، على هذه الهيئة (كانت) في مدينة Antofagasta. والأب أيضاً، (عاش)، بين أشجار الزيتون والأصدقاء البعيدين، وحتى «يعيشهم» ثانية، فلقد تعود أن يتمشى أمام الصورة، عند المساء، يتأملها بالنظرات العميقة للذكريات.

- هناك، ينهض القديس الجنائزي- أشارلي - بينما قلبه يأخذه إلى الأيام التي حملته إلى جلالتها خفقاته وكأنها تجعله على بعد خطوة من الصلاة.

كان يشير لي عن الآلام» ويحكي لي عن الساعات التي كانت الأجراس تبدو فيها مثل قارعة للمجد.

عندما صرت رجلاً، ناداني وأمام كل بيوت «خيروسالين» (كأنه استدعى كل حياتي) ..

إرثي الأكثر صلابة هو هذه الصورة التي أقدمها لك، عليك أن تحميها، وأن تأخذها إلى منزلك عندما تشيّده، لا تنس أن والدك سيكون في أحد بيوتات الشارع الجديد.

لم أفقد «الميراث» أبداً، أنه في أعماقي، والآن وأنا أكتب فإنني أرقبه بالحميمية التي علمتني إياها الحياة.

وأعتقد أن والدي يخرج من أحد الشوارع، المضاءة بالعذوبة، يتقدم نحوي، يقبل جبهتي، فتجلب القبلة لي دفء حبّه ودفء هواء القدس، إنها قبلة حارة وعميقة قبلة من القدس.

محفوظ مصيص ..

«قناص» الشعر التشيلي

«ثمّة موتى يحيونني، أتوا
من فلسطين،
يسألون كيف ولم، أنتحب،؟
فيها يهطل المطر يملؤون جرارهم قائلين وداعاً
بين قصيدة رعوية وصلاة جنائزية مريعة
آه، أطيافاً عزيزة، قديسي احتضار،
هل والدي هناك؟
كل ليلة
ألقي بنفسي إلى النشيج في بيّارة الليمون،
أو أكثر من الترداد إلى البيت،
الذي ملأه الوثنيون بدماء، وباحتدام مديد.
عندئذ: أيها الأجداد الشفافون،
أغتسلُ بماءٍ آسن وطيفٍ برتقالي مغلي، وأقول:
أي ذكور أجلاء
من جلدٍ وملح
خرجوا من أفخاذكم، كما الألماس
من الكربون الأصيل وعاشوا
في خيامٍ كالتي لهنودٍ حمر، مع
الشمس كحسنةٍ وحيدة، خيولاً سود في
قلب العاصفة..
للفدائيين هؤلاء، غناء من حجر، أواه أيها الربّ المتسول.
متى يسّاقط جلدي

أو أفتح أفران الضنك تلك

لأصنع ذهباً قاسياً كعين الصقر،

وأهديه

لمقاتلي هذا

الزمان المتردد والزائل ..».

(من قصيدة: «نحيب المنفي»)

«محفوظ مصيص» أو «قنّاص الشعر التشيلي»، وفي صباح ربيعي ليوم 19 / آذار / 1916، لم يكن والده المقدسي وأمه اللبنانية يعلمان أنّ صرخاته الأولى في «إكيك Iquique» البلدة النائية في تشيلي، كانت صرخات تعلن «ولادة» منجم آخر يضاهي مناجم نحاس تشيلي، بل قمة مضافة إلى جبال «الإنديز» وأريج لا ينضب لفلسطين.

في شتاء بغدادي العام (1986)، بدا لي كطائر كوكبي قُدَّ من شعر.. يمشي ويلقي بظلاله على الآخرين.. يحيط به وفد أمريكا اللاتينية إلى مهرجان المربد الشعري، كأنهم يحيطون بـ«قديس».

مجلبباً بسبعين سنة، لكنه «تعرى» سريعاً أمام حكاية أولى:

«لقد سماني والدي الفلسطيني وأمي اللبنانية في تشيلي (فلسطين، لبنان، تشيلي) «أنطونيو»، لكن أريج فلسطين الذي يسكن روحي أعاد تسميتي فأبدلت «أنطونيو» بـ«محفوظ»»».

كان يعرف من اللغة العربية ما يلزم لإلقاء التحية والردّ بمثلها، لكنه على علاقة راسخة «بكلكامش» و«بخوفو» وبـ«أبوكاليبس المبشّر» الذي «ولد في الصحراء حيواناً مرعوباً، لكن بطيف إنسان، وقد فقد رأسه ناجياً من الطوفانات، وهام يبحث عن طالعه عند الكلاب قبل أن يهوي فوق المرايا وحيداً وكسيراً».

هكذا هو في الأسطورة الشرقية التي تعرضت إلى الانسحاق، وتحللت وتبعثرت في قبور الأسلاف، يحاول إعادة خلقها مع أن بقاياها جازفت بها الرياح السوداء للطاعون.

قال لي: «أسلافي قيّدوني بشحنة قاتلة، ليتها ترفع من شأن حياتي «كقاروط» أمريكي..

وعندما انفردت بـ«أوسكار مورا كونتريرا» (Oscar Mora Contrera)، رئيس اتحادات الكتاب والجمعيات الثقافية في أمريكا اللاتينية، ليحدثني عن «مصيص»، أجابني كصوفيّ في حالة خشوع: «إنه يعيد تشكيل نموذج جديد من الأدب، إنه قنّاص الشعر الإسباني، حيوي ومتشائم، الموت محوره الذي يدور حوله ليجد حلاً لحسرته الشعرية، شعره مليء بالدراما العنيفة وفانتازيا الواقع، من غير أن يفصل بينهما، إنما يقذفهما في اللغة ويغلق عليهما في مخيلتنا»..

(عندما أصدر مصيص مجموعته الشعرية «دواب الحداد 1949» اعتبرتها الصحافة التشيلية أهم كتاب صدر في العام 1949)، وأما كتابه «والت وايتمان الذي رأى من جزيرة طويلة»، فقد حاز على الجائزة

الوحيدة لاتحاد كتاب تشيلي (1952)، وفي الكتابة المسرحية، حاز على الجائزة الوطنية في (1953)، كما حصلت قصة «اليائس» من مجموعته القصصية «أحلام قابيل» على جائزة وزارة التربية.
ويتابع كونتريرا: أمّا «سوناتات الديك الأسود»، فقد جاءت لتؤسس لمنطلقات جديدة للشعرية في تشيلي بل أمريكا اللاتينية والتي يزدري فيها الجمال لأنه يتمرد على المفردة المنمّقة»:

«حقيقة: خطت الجمال بالخناجر

بالحزن وبالقصدير، غطيتها بثيابٍ ربّانية،

بهوس دمرت أحشاء الجمال، أمعاءها الفقيرة..

كِلْتُ التراب على عينيها المشعثّين..

وعند الغروب، أيقظت الذروة بصرخة طويلة ومصابة بالحنين».

بل ربما نادى اللعنة كشلالٍ جنائزي لرسالته الشعرية!!
عندما سألته عن سرّ ذلك أجابني:

«حياتي كانت قاسية ومريعة

أشعاري قاسية ومريعة»..

كأن فئراناً وزهور ماغنوليا تعشش في لغته.. بل فولاذ السيف وحنان الأب الشرقي.. إذ تحوّل «مصيص» إلى «ديك أسود»، انبثق من فنائه ومن انتصاره.. كأنه خزّاف واللغة طينٌ حميم، مع أنه يفضل صقلها، دائماً، وبتمردٍ مطلق، كالذي لوردة متألمة، لأحجية مشتعلة، بل للذي قُصِد رأسه جرّاء عمقه الذاتي..
يكتب «للفدائي» غيفارا:

«إذا أخبروك أنني اقتلعت عيني وأنَّ ذبابة سوداء هائلة مثل زعنفة الموت

ذبابة تذرع بحر مفصودي الرأس..

كل المطاردين في هذا العالم نبكيك في

هذه الشوارع حيث انتهى فيها القمر..

أقسم لك

أن ذلك شيء حقيقي،

أقسم أنه حقيقي،

أقسم بيديك المقطوعتين اللتين

سافرتا من مسلخ الوادي الشاسع *(Valle grande)*.. هناك

حيث كنت مشبوحاً كأنموذج لنار البركان أو

كإله سقط في شبكة قمل

أو مهرة بيضاء برأس من ذهب هوى

في مجاري المدينة»..

هكذا يبدو مصيص رمزاً للاحتجاج، حتى ضد ما هو مستقر وضد من يسعى لفرض سكون وثبات لا يموت، وعندما يصاب بالخيبة يترك «وصية على حجر»:

«مثل قزمٍ ميت في قاع فنجان

ومثل أوديسيّ مخزي

أمخر هذا الملعب الأسود

أبحث عن الإله الذي صار نحيلاً

لكثرة تجواله في الأرض».

ويقف بحسرة على قدم سلسلة الجبال غير الرحيمة والبيضاء بوصفه «أريج فلسطين في القارة الأمريكية»، يطلق صوته مهرة ضد الظلام.
إلى جانب تطوره الشعري، عمل مصيص في مجالات الرواية، والقصة، والمقالة الصحافية والفضاء الإذاعي والكتابات العسكرية والسياسية، حتى يعبر عن هويته «إنسان/ مبدع»، شغل منصب رئيس اتحاد كتاب وأدباء تشيلي في أوائل الستينيات، ورأس تحرير مجلة «الجدل» الأدبية، أقام منفياً في (كراكاس/ فنزويلا) منذ (1973) وحتى (1990)، حيث عاد إلى تشيلي بعد تسلم المدنيين لمقاليد السلطة من الجنرال بنوتشيه.
بقي ظلّ فلسطين ثابتاً في أشعاره، كذلك ظلّ الاغتراب في ذات موطنه، ظل الاقتلاع من الأرض، ظل المنفى، وعملية الاستذكار للأرض من الأعماق لم تكن فيزيائية، إنها تعود لمكانة إنسانية، لإنسان متميّز، حيث يمكن للإنسان أن يحيا، ولهذا، فإن حساسيته تجعله يرى «الجور يوسع ثقب الروح أكثر».
على أدراج فندق «المنصور ميليا» في بغداد، ودعته وأنا أتأبط مجموعته الأخيرة «نحيب المنفى» وقصائد عديدة.. عدت إلى «بيت المنفى» لأمزّق كل ما كتبت من غنائية ورومانسية، وفي الأيام اللاحقة، انشغل الوسط الثقافي في بغداد بترجمته لهذا بالضبط، لم أفاجأ لنفوذ «مصيص» في النصوص الشعرية للشعراء الذين نقدمهم في هذا الملف. فمنذ مجموعته الشعرية الأولى، أثار اهتمام النقاد، ليس في تشيلي

فقط، بل في اسبانيا وفي القارة الأمريكية، وكذلك المجلات الثقافية التي اعتبرته مباغتاً لكن أليفاً للشعرية الجديدة بعد ثورة (روبن داريو النيكاراغوي). ولهذا اخترنا بعض من شهادات كبار الشعراء والنقاد في محفوظ مصيص وكذلك المجلات المتخصصة.

* * *

«هل استحلت حضرتك مالكاً، مقتنياً مطلقاً للفعل؟ أعرف أخيراً أن في ذلك يختبئ السرُّ الأعظم للشعر المنتصر.
وهل صرت حضرتك وليّاً لأشباحك، لقصائدك، لكائناتك الميناطورية..!! (كائنات نصفها بشر والآخر ثور)
في أي دارة لكوكب زحل ربما تكون قد ولدت؟
حضرتك.. محفوظ.. ترفع الرعب من بودلير».

(خوانا ده أباربورو)

«لم يكتب في أمريكا، عملٌ، كتابٌ، مثل «دوواب العزاء»، ولا حتى يمكن أن يتشابه معه، مع هذه المرثية التي نجدها أمام عيوننا».

(د. خوان مارين – مجلة المنتدى)

«محفوظ مصيص، شاعر متوحش، بالمصطلح الشعري الكامن في مفردة متوحش. وهذا يفصح أنّ قوته ببساطه هي هائلة وفظيعة، وأن له مسوخاته رائعة، ملونة، ومتباينة، ونعتقد أنه في هذا الجانب يرتفع عن الشعراء العظام الذين وجدوا قبله».

(مجلة «الجلمود» إسبانيا)

«انتباه أيها الشعراء في إسبانيا وأمريكا اللاتينية. من هذه المحافظة التي منذ سنوات عدة أطلقت (خوان مانريك) ليغزو عالم الشعر، نريد أن نعلن اليوم، أن نوجه نداءً لكل العالم: ثمّة شاعر عظيم يختبئ في محفوظَ مصيص».

(مارسلينو غارثيا بلاسكو
مجلة «الجلمود» إسبانيا)

«هذه «الأحلام»، كنموذج، كخلق خيالي، هما كتاب مباغت. هنا في تشيلي لا أحد كتب بهذه الطريقة الأكثر عبوساً، الأكثر تبياناً، الأكثر تشكيلية من التي يكتبها مصيص».

(بيرنارد كروث «آخر الأخبار»)

«قصيدته (مرثية تحت الأرض) هي شسوع مفزع».

(خورخي انريكِ – الأرجنتين)

«داخل المناخ للأسلوب التجريبي الذي تستخدمه حضرتك، أرى في «الجزيرة» حكاية لحيوات استثنائية، يمكن مقارنتها فقط مع الأكثر هذيانا لكافكا».

(أغو إميليو بدمونت – أوروغواي)

«شاعر عظيم، صاحب الأصالة الأكثر، والمنطوق بقوة في أحاديث تشيلي اليوم».

«إذا كان لا بد من وضع خط سلالي رعوي لمحفوظ مصيص، فإنه سيعود إلى النطق الأكثر قوّة لما سمعه البشر».

(خوسوفينا بلا)

مختارات من أشعاره

بيوغرافيا مفتوحة

دوابي التي من غزل السعالي
تبحث عن وادي الأمير(1) الذي يحيا برئة طائر البجع.
محتسياً نبيذ «النضير»، النبيذ المسلح
بالذكريات وبالإطلاقات.

فلتنظروا إليّ عارياً، سلاحي الوحيد القُبْلَة،
وفي يديّ بالكاد مُتسع لميتة شاعر.
كذلك، أي عبير لابن آوى تعطرين بها الصدوغ؟
لماذا هذه العصافير السود فوق مأواكِ؟

روحي ضبطها الحب

والحشيش الحلو الذي يغفو في عيونكم.
لكن، أية حجارة، أي إرث، أية مجازفة مشؤومة،
أي شكل للخط يشدّني كما يشدُّ كلباً
إلى التمثال، وإلى ساق هذه الغابة الملعونة؟

أتوسل الشسوع، الأشباح التائهة
المربوطين بالسماء.
النجوم التي تسّاقط على البحيرات الصغيرة

لكن، آه، القيود لا تزال تشدني بعيداً،
نحو الضوء الذي جاء يجدّف يصنع دوائر من الغابات والسنين،
فتساقطت الأسماك من شدّة العطش للطيران.

أبعد من الفراغ المقدّس المُقدَّر
حيث زعانف الربّ قد تهرأت:
أعيش موثوقا إلى الطحلب الأسود لروحي.

البحث عن أمير مفصود الرأس

فلتبحثوا عن قلبي
في نُزلِ الأمراء الميتين
على أعصابي يتغذى غناء الفهود
دولفين نائم
بين ياسمين البر.

لكن قولوا لي، أين الأمير الذي أكلته نباتات اللبلاب،
بنطاله الأبيض الحريري، نَدَاهُ
الصافي المبعثر؟
أشكّ أنا بالكونت بعينيه المتعددة الألوان،
بالضابط المجمد، وبالأسماك التي في الليل اقتاتت أكفان البئر.

فلتبحثوا في أيّ مخزون مياه جوفية، في أي دلو متعفن،
مثل وردة فانوس قصيّ في الحياة
اهتزّ تشرده وتأرجح عنقه المفصود!!
أيّة ريحٍ سببت الألم لأشجار الحور كان يقلد صوتها؟
من يبكي الأمير، قولوا لي، من يبكي؟

في وقب عينيه فضاء ومتسع
للظلّ، للشمس، للذئب وللهدهد.
هيكله العظمي يتعفن في مغارة من معدن الرصاص كقبر،
يرحمه.
لم أقدر أنا، يداي منشغلتان بالحلم
والراتينج الحلو يغسل الآن الخناجر العتيقة.

أيها المارون بتلك المغارة، اقرعوا الباب
أنا الأمير عبد اسبرطة.

من مجموعة: «دواب العزاء» – 1949

قصيدة 1

ليلة ما نامت الذئاب في البيت، قضمت
العظم العائلي البالي، ودجاجة رومية
بعاداتٍ كابحة للعواطف، سقطت من البرتقالي،
وكانت
حجراً من ذهب،
شراباً، قرباناً للغرباء.

كنتُ رَجُل يافا في العائلة
آكلُ في مقلاة،
نائماً
مثل متوحشٍ فوق الحصير
لا أحد قرأ في قلبي المدينة المدفونة.

عذراً لي لما كنت عليه، وللذي سأكون –ولو مبكراً،
للذي لن أكونه دون أن أبعث إلى السوق بروحي.
سيد بذيلٍ طويل ألقى عليّ السلام يوماً ما،
ومنذئذٍ، أسأل العابرين ما هو اسمي؟

قصيدة 3

أنا محفوظ مصيص، العبد،
المارق ذو الجلد الأسود،

المجنون، الفار من الجندية، الأبله المغزول من ثلج.
أخفي أسناني الشنيعة، ذيلي الذي لملكٍ بابلي،
كلما مشيت في المدينة رفقة النهر الملوّع.

بين ازرقاق زيتي يعتم ظلي الشائخ.
يعبر المستنقعات،
أعوي على الجلالة القمرية
ببزتي العسكرية الغامقة
بزة ميت.

يمكنك لمس طيفي، فراشته العظمية البعيدة.
ملمحي الذي لوثني ذارع
ضائع، بلا خيار في معاطف الليل.
تشردت ألف سنة بعيني البائسة، أكلت تحت الأسوار،
مع فجرٍ ما
بدأت الغناء بصوتي الغليظ، (صوت) قاتل،
(بدأت) كتابة هذه الطقطوقة (طقطوقة) الحدادين القدامى.

مثل إلهٍ شمسيٍّ صغير وشاحب
أمشي الآن في العالم بعيني اللتين لكلب،
أنبش التراب، بين ديدانٍ وشقائق نعمان متعفنة،
أبحث عن رأسٍ عزيزة
طيفٍ ضائع منذ زمنٍ بعيد.

قصيدة 15

مُجَالِدةٌ في مضجع الزفاف،
الضباع أتت لتأكل من لحمك الحبيب في الليل.
شباك حديدي يتفتح، أنفذ إلى مخدعك الغامق.
قروننا تناطح العقيق اليماني العبوس
نعشق بعضنا، نفرغ عيوننا، نجعل اللسان يتوقف
مثل نمرٍ تحت قمر نوفمبر،
بين كؤوس شراب الجن يجثو جسدك، سلوقي بارد،
ملتفاً في تبن العانة الصامت.

أحدهم يسطو عندئذٍ على عينيك اللتين من الخشب الكابلي،
والرأس
الملعونة للملاك فوق الوردة المحروقة
للماء، تدفع هيئتك
الفارغة نحو الأرخبيلات، عيناك الهائمتان
أكلتهما أولاد آوى
على رحمك تحط طيور بمناقير حمراء،
والفم الذي أبلبل به هذه العبارة الضائعة والحبيبة
يرتجف تحت السن الرفيع للقوارض.

غناء 18

فوق هذا القلب المأكول من الحجارة،
فوق هذا الصدر البالي،

كنت أخفي ملمحي في الطفولة العارية،
عندما الغراب الكبير للّيل، عندما
أجراس الحياة الأخرى
فلقوا حلمي البخاري والعاصفة المكتملة.

أحدهم وضع الأصابع على دقاقة الباب الغليظة
أطلّ بقرنه المحاط بالقطرب،
وابتسامته، مثل دالية من رماد بارد،
تقيأ في الفراش عقرب ظل.

كل صباح كنت ألتقط جثتي،
هذه الأصابع اليابسة، مثل وردة صفراء،
شفاه ما، لا يمكن العثور عليها الآن،
أضأن قدحات العزاء في عيوني .

من مجموعة: «مرثية تحت الأرض» – 1955

قصيدة الأيادي الميتة

خذي يدي، هذا العظم الذي سيضيع يوماً ما.
شدّي عليها، ضعيها فوق قلبك بينما يتواصل الليل.
بها أكتب هذه المقاطع الميتة، بها أجعل فراشة تنبجس
كل صباح.
بها أقول لك وداعاً، أيّها العصفور الشائخ.

أُنظري إلى يديّ، هكذا فقط يمكنك معرفة حزني.

إذا فَطَرَت لك قلبك، إذا أكلْت دماغك، سيكون لك هاتان اليدين،
متوجتين بهواءٍ لا يُهزم، وبأيكٍ ميت.
بهما ستتناولين حساءَ
عزاءِ الشتاء، المحاط بخنافس وأولاد.

أبانا الذي في السماوات، احم لي هاتين اليدين!!
أن لا تغطيهما الديدان إنّما في الساعة التي ترفع فيها حيوانات
ابن مقرض أقدامها عند المغيب وعندما آيادٍ
أخرى تكتب:
«كان غريباً متوحشاً في الأرض»،

ستعثرين على يدي فوق الشمعدان ليلة ما،
محاصرة بالفحم، عاجزة عن عناق خصرك،
تمسك الظل، تبغ
السيجارة الجنائزية في الريح.

في طيفي
غير الرحيم والقصي، ستجدين فقط
معبداً من عظم، بواقي
حقيقة مدفونة .

مزمور صفر

عينان مشحونتان بالهذيان، من يموت في دواخلك هذه الليلة؟
لا تقذفيني داخل الموت،

انبسطي، أغرقي جبهتك السوداء في البحر،
أطلقي جمالك الشاحب، يتقافز فوق جلد الهاوية،
بينما أقتل في الظَهَر الوهم، بينما الواجبات تنسحب
مثل جندب جريح في الرأس.

انزلق، يا طيراً من حجر، (احتفظ بنفسك)، كهنوتياً فوق
حفاري القبور.
لا تجعل النقود القديمة ترنّ!!
القلب «يشلشل»
صدأ الخلود. رجلي الخشبية،
روحي، روح حالمٍ فقير يبدأ موسمه الأخير.

فلتلقوا بي فوق الفضاء المنحني. أبعدوني عن تلك
التي أحب بحدّه،
مثل الهواء لظبي أحمر.

الآن، برطلوني تحت الماء،
بين الصومعة المطمورة وقطيع الأبقار السود، برأس (*Belcebu*)(2) في الصدر،
آهٍ يا قصاص الأثر، قنّ أخضر يغطيني، ميّزني بين
تلاطم الأمواج
أيها الأب الميت: ميّزني بين الرمل!
أيقظني!!
دع يدك اليابسة تسقط على عنقي، حبلك الذي من مرس يابس، عظمك اليابس.
أبَ الكلأ والجدري،

يا سيد المتوفين، أنت يا من يسيطر على الحلم، على دورة
النساء الشهرية.
أنت الذي أمتّ في المهد الطفل الزهري،
تذكر منشد المزامير صاحب العيون الصفر.

من مجموعة: «النيازك المطفأة» – 1965

أنا فدائي

لم أعد أعرف كيف أحيا بعد
أبلبل هذه اللغة، المجهولة لذات قلبي،
لغة جامدة وسائلة من ومضات البذاءة،
لغة قديس ممتهن
لغة أجيال محقها البحر فوق العظم البنيّ للجوع.

فئران وزهور ماغنوليا في لغتي.
ثمة مطر.
أسنان، شفاه صفراء،
قنديلٌ لقاتلٍ مسمرٌ على الباب.

ليلةً
دفنت والدي، انطلقت
وحيداً. ثمة ميت دائماً
في فنجاني، نظرة،
قبّرة كانت تبكي باللغة الأكثر عتمة.

سحقت

حذائي

وأنا أمشي.

تعلق الفقر في عنقي مثل أوزٍ متوحش.

من قلبي

تدفق

دم أسود

دم طفل مشنوق، قليل

من الماء، وهذا التبغ الدائم للفدائي

فدائي هذا العالم.

من مجموعة: «وصية على حجر» – 1971

–I–

أتغذى الكبريت

أنا

مدينة بلا أبواب، حيوان يعوي

مجلبباً بمعطف من رعب

يسألونني، متى أخبو،

لماذا توقفتُ عن التنفس غريقاً بين هذه الحجارة،

وأتكلم مع العصافير

مثل طيف كلكامش بين الركام،

يستغيث بالتي تغسل

خصلات شعرها

على ضفتي البحر، أو بالذي يشرب
الدم والخيبة
مثل عباد شمسٍ عند الغروب

لكني أرصد محضّري الأرواح،
والذين يقتلون
عصافير الدوري
ويأكلون الليمون البني أثناء الصلب

لأني عرفت أطيافاً
قديمة
في الطرقات المحفوفة بأشجار الحور حينما
انفلت الغضب الكوكبي، رجالا أفاضل،
نساءً
حلاوتهن مثل حلاجات القطن،
بينما الشمس يجرحها الخريف
تدفع بزخات المطر إلى سماء الجنوب المظلمة.

-II-

ظلي يخترق الماء،
قهقهته مصنوعة
من ذهب رخو،
يرتدي قبعة من شَعْر ويمشي بين الناس
مخلفاً لعاباً محروقاً وأبيض.

من روحي عظام تخرج،
ريش غراب قرمزي.
هيكلي ينحني على أوراق الشجر، يشعشع
بخطب وثنية، بزهور من رماد،
أتكئ على السيدة العجوز في المقبرة
أو على حبال السفن تلك
التي تتكلم عن حضارات الريح الموسمية القديمة

صغيرتي، يا ذات الشعر الذي يصل حتى البحر،
إنسِ أن هذه فراشة قديس
مالح،
إنسِ حانوت الحدادة المتناثرة في
هذا الشتاء الوقح، حتى العثور
على قناع الملاك المحطم وتنبؤاته التي لا تلتئم.

أن أبكي فوق هذه الحجارة،
فلأنّ طيفاً يطفو وسط الخراب،
يغيث بلداً من أسماك باردة،
من نساءٍ
يلعنَّ الزيت الأسود،
رمال الكربون المجلود الآن
من قبل مياه هائجة.

-III-

بحجرٍ من بلادي، بنهرٍ قد نضب
يشبهونني،
أو ببنطال مجنون،
يمضي وسط الشتاء بلا تعب في عناد الموت.
وفي الأثناء
وزعي جمالك سوية مع قدور تغلي،
دمري نفسك، امرأتي،
أو تساءلي، دائماً، تساءلي،
متى، أيها الرب،
ولماذا جلبوا هذه الجثة في وضح النهار؟
حشد هائل من عباد الشمس
يلفك عندما تتساءلين،
حين تسألين:
يموت رويداً رويداً، مثل زهور
الغاردينيا تلك
في المصح حيث الندى ناعماً مثل ساقيك.

هكذا تولد هذه الأغنية التي منها
أنا جلادي ذاته، بلبل أنا مدفون في ليل
الأنهار الجليدية
أنظر نحو الجنوب بحقد عنيد،
أبصق كل ليلة
على جلدي الذي يستقبل مداعبة
الماء، حينما في الحقيقة، إرثي يكون إعصاراً،

قشرة رأس، قذارة كغذاء، ولا أستحق
هواء هذا الجيب المنسي.

الطائر حائرٌ، هناك، الجوع، لونكين، هذا الكهف،
وأنا أبلع مسامير في هذا المنفى الذي من ذهب،
أشيخ، أصدأ،
أتقدم كأن جمجمتي تهتز
فتسقط أسناني المشبّعة
بشراب الرووم
في ليلة الكاريبي.

-IV-

أنا المنبوذ
الذي يحيا في أحزمة بؤسٍ مأهولةٍ
بالقتلة.
ألوهية تذلني، أهذر،
لغتي هي لغة مجنون،
أو لغة عجوز يبكي والده المدفون
تحت شجرة تين
أعرف
أنهم لن يفهموني، أنا لست سوى قديس منهك
يهبط من تلك
الأنقاض
حيث الأموات يغلون خبزهم، لكن لا أحد
يسمع كيف

استنفذ
وأنا أشرب هذه القهوة الغامقة في السرداب المالح.

أعلم أنهم سيحملونني
موثقاً
إنهم سيشعلون المحرقة، قبلما عيونٌ عنيدة، غير محصنة،
تقذف بريقها الأخير.

آه، يا روحاً
ذئبية السلالة، وعيوناً بلون القرفة،
لا تحرقي بخوراً بعد
تحت البرج، هناك
مَنْ يسعل يختنق وسط المطر
عزاؤه إليك تمزيق أحلام أخرى.

–V–

كنتِ اللحم، العسل،
وكنتَ أنا أدخن
تلك الليلة لفائف التبغ الطويلة،
والبيت كان محاطاً
بمقنعين كانوا يلفظون اسمك.

أنشوطة هناك كانت
علقوك بها، يا رفيقة
قوامك ضاع وأنا ما زلت أحيا.

في الغرفة الآن زهرة غاردينيا كرفيقة وحيدة.

حطموا الضوء، امتهنوا جمالك.
ولهذا أقول الآن: عين بعين وضرس بضرس،
حنجرة مقابل كل طيف تمزق.

حقدي الآن أمام الجلاد
وأمام الذين اجتازوا وخلفوا رماداً يتوهج.
أحياناً، مصاباً بضربة شمس،
أناجيك لأعرف إن كنت تتنفسين بعد، أو،
إن صببت الماء للأقحوان

وحينها يُسْمع خريرك في المطبخ
حيث قط أثريّ
يعض عقدك في الوقت المتأخر
زبرجداً ويموت
حباً تحت طالعه الزجاجي الرطب.

لم يكن سوى صمت وسنونوة
ميتة عندما مرت شعلة
نيرون
ورفاتك كأوفيليا، مضى في النهر الضيق
لهذا السبب أيها النهر سنعود
لإغاثتك
يا رفيقة.

-VII-

قريباً من الماء
أبحثُ عن خنفس، أيّ أتحدث إليه،
معتوه، مخنوق ما،
ربما وتيرة للرجوع،
يا أمي، إلى ليالي الأسيد المعدني،
حيث تكونين أنت،
وأقدر دخول سانتياغو لأذرف دموعاً
اسفنطية فلزية وغامقة.

لكن ثمة زهرة رعب كانت دائماً في الطريق
تمنع الرحلة صوب الخراب.
فقط شعر كان،
فئران،
بيانو منخور،
في الظلام
أشباح في المطر،
قليل من نشارة، سفينة فارغة،
خاتم ما متروك في العاصفة.

الكل يبدو متماثلاً وينمو الوله،
الكل يودع رائحة حيوان،
لكنني أتذكر،
فجأة، أن،

عينيك هما من ياقوت أزرق في الشباب النائي،
ذلك الحصان الجاثم
وآنذاك اكتشف
زعنفة للإله في هذه المدينة ذات الأبراج التي لا تحصى.

-VIII-

رأيتهم يعوون
أو يلاحقون فئراناً بين مقاعد البرلمان
الداكنة
في أستراليا
أو كندا أو أوروبا، أو يستحضرون
الحلم الخرف للوطن من بعيد.

ما السبيل لفهم أبناء
العاصفة هؤلاء؟
ما السبيل لجرحهم مستحضرين وقت عصافير،
وقت رياح تحت الضباب؟

أطياف
باهرة تتكلم الآن لغة راسين،
مثل منشار ستدخل
ناحيةً
في أخشاب التابوت
أو في دعائم الخريف العصي على التكهن.

أوقية لحم سوف تُفقَد، قليل
من دمٍ في جلد
اللعين القاسي.

عندما نعود، إن كان هناك عودة في النهاية،
سنكون مغطيين بالطحالب، كمينيرفات(3) مجهولة
لكن لن يكون بمقدورنا
بعد
رؤية أنفسنا،
ولا حتى عظام الردف، ولا حتى امتقاعنا

كارمن: الابن الضال لم يمت
طيلة الغياب
بل عندما قُرِعَ باب
إخوته،
النائمين،
الذين لا شفاء لهم،
العراة الآن في البستان.

-IX-

أحياناً أبلّل الاسطبلات
دون أن أقول من أنا،
من أي سجنٍ أنا فار أو أي ملاك
يتغذى من ذاكرتي

وسط الكحول وبقع الكبرياء الشائخة.

ملقىً في تبن، في الليلة الشبقة،
أتكلم،
يا أرضي،
عن صَلبك،
وأقول كنت محاطة ببغال ومهرجين مبلولين،
على الحلبة، وبشفاه الإعصار،
بالذين رشوا عليك الكلس ولم يكن ثمة
رأفة لك

لم يكن شيء، شيء فوق هذا الغبار الأبيض،
ولا حتى الضوء الرطب،
ولا عبير الوردة الفقيرة
وردة أولئك الذين لن يعودوا أبداً.

آه، أيها الرب، كم من التناقض،
كم من الحيل
من أجل العيش.
اليوم أرى أطيافاً جديدة
رفقة المرآة، تتفحصني أو تنخزني،
أو تفتح لي الكليتين
مقدمة أنموذجاً للمشنوقين في المزبلة.

الحقيقة أعيش بشعرٍ مقشعرّ،

ولم أعد أملك إجابات لكثير
من الأسئلة الطيفية.
فقط أعرف أن هناك كلمات معينة.
تنزل من قمرٍ أسود، مع أن الكلمة هي كلمة حب،

لم يتكاثر صانعو الأسهم النارية؟، أقول
نعم فقط أبحث عن الذين يعيشون تحت السرو
ويأكلون الغار المحروق.

كم من عرقٍ،
كم من رائحة ضبعة تقتحم السماء الجبارة،
اضغط الآن على فتحة البنطال، وبُلْ
على جنود تشيلي
الباسلين
بُلْ دماً على خوذاتهم؟
قف إلى جانب الباكين في نضيدة تبن مرتعشة.

أعرف أنني
لست أكثر
من حبةٍ مطحونة على الحجر، قليل من الخردل
وسط الحقد،
لكني أسميهم عاهرين وقتلة،
لأنه في النهاية، أنا ابن كلماتي،
وبها ألعن النمورَ
أسنان الحربة.

–X–

كأبله تنازعني الكلمات.
الكلمةً تعذب، ككلمة «مثلاً»،
أو «منفياً»
اللتان تؤلمانني كما لو كان في أحشائي سلاحف.
غيرهما
تأتي من حيث لا أعلم، ككلمتيّ أنياب
أو دكان حداد،
كلمة الجوع التي تخرج من جسدي كفأرٍ ميت،
أو زي، أو بدلة فارغة،
أو ذلك الذي لا يقاومه القلب والذي
أرفضه
هذا الصباح من أيلول
في كراكاس الأخت المتيمة والمجنونة بأمريكا.

لكن ثمة
كلمات أخرى مثل سماء، أو امرأة عارية،
أو سمك مزركش،
كلمة عصفور في فم شجرة الخوف الساحرة،

-XI-

والدي، ألقوا بيّ في هذه البئر.
لا رحمة أو آلهة تستطيع تخليصي!

إذن، أيتها النساء،

ابكين من أجلي، ابكين فوق هذا القلب

الليل ووردته الأفريقية

فقط

يستطيعان النظر في المرآة حيث أرى طيفاً

حزيناً، ممزقاً

نساءً قتلى، أوراق بردى

مدماة تحت

هذه الشرفة،

وأنت، والدي، بعيد جداً،

جداً بلا غضب،

دون أن تعرف هذا الهواء الأزرق المدلهم حيث عليّ أن أتواجد.

كل مرة أعيد فيها ورقة

مرتجفة

أو ألتقط فراشة عن السجادة الممزقة،

أتساءل لماذا؟ ولأجل ماذا؟ ولا أحد يجيب على نباحي.

أنا

الذي خرج من صلبك

الأول في المنفى الفقير هذا،

أبداً ما فهمتك، كنت تسأل

لماذا نحن هنا. كم هي بعيدة فلسطين!! وأنا فقط

من كان يريد البكاء.

أرغب، إن كان بالإمكان،
تصفية هذا الدين بقطع
الذراعين
هذا اللسان الهائل،
أو إقلاعي وإلى الأبد عن النوم.
أن
أقول لك: لنمشِ سوية إلى فلسطين
لكنها
لم تعد موجودة وأنا
وأنت نمضي في شتات.

-XII-

هناك ليالٍ
أرى الجنرالات، والبَيْض
يحترق، وأقول
مومس التي أنجبتكم، وأشياء أخرى ضرورية مشابهة.

أبناء الضباع
المبرقعة
وسّخوا ضوء الغاز الكربوني الأسود.
شربوا زرنيخاً في جرار ذات أربع أياد.
بصقوا دم نساء.
رحلوا مع انسياب السليكون والسفالة المغلية،
وللذين عطشوا

جعلوهم يتقيأون
اللسان.

لكن ستأتي، إني أكيد،
ساعة المتكهنين والطنابير الباردة،
الجدار الذي عليه سيسقطون مثل أجنّة قلقة.

كل شيء سيصل لساعته، أيتها الأخت النائية،
كما يصل الإعصار أو الحلم
الذي لا يقهر، لكنهم لن يسمعوا
غناء الديك
بل بكاء القاتل،
شكوة البوم الكئيب والعنيد،
بعد سماعه لذات نعيقه.

من مجموعة: «نحيب المنفي» – 1986

قصائد أخرى

المتورط

عندما قتل عشيقته، كنتُ أنا متورطاً.
عندما مات من الحزن، كنتُ أنا متورطاً.
عندما أُعلنت الحرب في الغرب
أنا كنت
متورطاً.

ذهبت لأغتسل، لكني كنت مليئاً بالدم.
لم يكن ما يكفي من الصابون أو من رمل بحري.
تقدموا!! يا بائعي مساحيق الغسيل والكلور الأبيض
سأكون لكم المستهلك
الأكثر هذياناً!

مرتبط بوعد مع بقع العالم.
متورط بجرائمه، بموبقاته.
لا توجد (جلاميط) إلاّ وتتدلى من آذاني.
لا توجد زبالة إلاّ وتقع في مركز عيني.
لا يوجد طفل ميت لم أدفعه أنا!!

يحدث عندها أن لا أنام ليلاً،
أن أتحمل فيلاً وأنا أغفو،
وأن أسأل في لحظة من أكون؟
ماذا فعلت؟
إذا كان ثمة رجال آخرون مثلي، فلماذا ينامون؟
إذا كان ثمة قتلة مثلي
فلماذا ينامون؟

يجثون بلا حراك
أسمع غطيطهم
يتنفسون بلا حقد، لا ينثنون.

لا أحد يتقيأ في بيجامة الليل.

أنا فقط عندي الوسادة مليئة بالقاذورات
أنا فقط من يبصق على فمي!!

سيرك

كنت كثيف الشعر، حزيناً.
كانوا قد
طلبوا أوقية من لحمي ولا شيء
جعل قلوب السادة ترتعش.
هكذا تركوني
أسودك، يا قيصراً من نظرات شاردة.
هكذا في شارع العصافير الميتة.
فيما بعد، المصارعون، الحشود، رائحة
الجيفة، تلك العربات
فوق الحجارة

عندئذ
ظهرت أنتِ، الأحجية المختلفة.
اسمي هو رومولو *(Romulo)*، قلته بوقب عين فارغ
ولم يهمني الموت بين فخذيك.

استسلام

أسلم رأسي إلى المحكمة،
بأحلام رجل سبحي

أريد خلاصي
من الملاك
الذي رمى بي إلى هذا السؤدد.

كفى
هذه الضمادات، لتلك الإبحارات القديمة!
ملكة صغيرة، أنقذيني
من تلك النساء ذوات الأفخاذ الذابلة الآن
حيث أنا على الدِكة

أُسلمني طواعية
لأعمل في المطبخ، أو أحضر
جمعاً من الصمت السام
مع ذلك الشاب الكسيح
أو هذه السيدة العظيمة بردائها الأبيض
وهي دجاجة عمياء.

---

* شاعر فلسطيني يقيم في رام الله.

(1) يستخدم الشاعر هذه الكلمات العربية التي دخلت الاسبانية (emir/أمير ، nadir/نضير).
(2) (Belcebu) شخصية أسطورية (قيل أنها سيدة الأقدار).
(3) جمع منيرفا .

تنويه

كان من المقرّر أنّ تنشر «الشعراء» مسرحية «كفر قاسم» للمرحوم الشاعر ابن فلسطين توفيق زيّاد والتي كتبها العام 1956، في هذا العدد، ولأنّ «الشعراء» تعدّ ملفاً عن «مذبحة كفر قاسم» سينشر – إن شاء الله – في العدد القادم، فقد ارتأينا أن تكون المسرحية ضمن هذا الملف .

«الشعراء»